مختصر
جامع العلوم والحكم

للإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي

اختصره وعلق عليه

محمد بن سليمان بن عبد الله المهنا

بسم الله الرحمن الرحيم

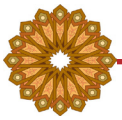

الحَدِيثُ الحَادِي والثَّلاثُونَ

■ عن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ؛ أَحَبَّنِي اللهُ، وأَحَبَّنِي النَّاسُ فقَالَ: «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا؛ يُحِبَّكَ اللهُ، وازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ؛ يُحِبَّكَ النَّاسُ».

حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وغَيْرُه بِأَسَانِيدَ حَسَنَةٍ.

الشَّرحُ

اشتملَ هذَا الحديثُ علَى وَصيَّتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ:

* **إِحْدَاهما:** الزُّهد في الدُّنيا؛ وأَنَّه مُقْتَضٍ لمحبَّةِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ.
* **والثَّانية:** الزُّهد فِيمَا في أَيدِي النَّاسِ؛ وأَنَّه مُقْتَضٍ لمحبَّةِ النَّاسِ.

۞ فأمَّا الزُّهْدُ في الدُّنيا:

فقدْ كَثُرَ في القرآنِ الإشارةُ إلَى مدحِهِ، وإلَى ذَمِّ الرَّغبَةِ في الدُّنيا؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]، وقال تعالَى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وقالَ في قِصَّةِ قارونَ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٧٩-٨٠]، وقالَ تعالَى: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: ٢٦]، وقالَ تعالَى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: ٧٧].

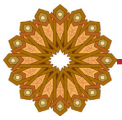

وقـالَ حاكيًا عَن مؤمنِ آلِ فِرْعَونَ أنَّه قالَ لقومِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٨-٣٩].

۞ والأحاديثُ في ذمِّ الدُّنيا وحقارَتِها عِندَ اللهِ كثيرةٌ جدًّا:

ففِي «صَحيح مُسلِم»، عَن جابرٍ، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بالسُّوقِ والنَّاسُ كَنَفَيْهِ؛ فمَرَّ بجدْيٍ أسكَّ[1] ميِّتٍ فتناوَلَهُ، فأخذَ بأُذُنِهِ؛ فقال: «أيُّكُم يحبُّ أنَّ هذَا لهُ بدِرْهَمٍ؟!»؛ فقالُوا: مَا نحبُّ أنَّه لنَا بشيْءٍ! ومَا نصنَعُ بهِ؟! قالَ: «أتحبُّونَ أنَّه لكُم؟»؛ قالُوا: واللهِ لَو كانَ حيًّا كانَ عيبًا فيهِ؛ لأنَّه أسكُّ؛ فكيفَ وهُوَ ميِّتٌ؟! فقالَ: «واللهِ لَلدُّنيا أهونُ علَى اللهِ مِن هذَا عَليكُم»[2].

---

(١) (أسك) أي: صغير الأذنين، ضيِّقٌ صِماخهما. وقيل: هو الذي لا يسمع. «المُفهم» (٧/ ١٠٧).

(٢) أخرجَهُ مُسلِمٌ (٢٩٥٧).

وفيهِ أيضًا، عَن المُستَوردِ الفِهريِّ، عَن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «مَا الدُّنيَا في الآخـرةِ؛ إلَّا كمَا يجعلُ أحدُكُم أصبعَهُ في اليمِّ؛ فلْينظرُ بماذَا ترجعُ؟!»[1].

ومعنَـى الزُّهْدِ في الشَّـيْءِ: الإعـراضُ عنهُ؛ لاسـتقلالِهِ، واحتقـارِهِ، وارتفاعِ الهمَّةِ عنـهُ؛ يُقالُ: (شـيْءٌ زهيدٌ)؛ أَي: قليلٌ حقيرٌ.

وقد تكلَّمَ السَّـلَفُ ومَن بعدَهم في تفسيرِ الزُّهْدِ في الدُّنيا، وتنوَّعَتْ عبارَاتُهم عنهُ:

رَوَى الإمـامُ أحمـدُ في كتـابِ «الزُّهـد»: قالَ أبو مسـلم الخـولانيُّ: «ليـسَ الزَّهـادةُ في الدُّنيـا بتحريمِ الحـلالِ، ولا إضاعةِ المالِ؛ وإنَّما الزَّهادةُ في الدُّنيا: أَن تكونَ بمَا في يدِ اللهِ أوثـقَ ممَّا في يدَيْكَ، وإذَا أُصِبْتَ بمصيبةٍ؛ كنتَ أشـدَّ رجاءً لأجرِهَا وذخرِهَا؛ مِن إيَّاها لَو بَقِيَتْ لكَ».

(١) أخرجَهُ مُسلِمٌ (٢٨٥٨).

وخرَّجَهُ ابنُ أبي الدُّنيا، عَن يونسَ بنِ ميسرةَ، قالَ: «ليسَ الزَّهادةُ في الدُّنيا بتحريمِ الحلالِ، ولَا بإضاعةِ المالِ؛ ولكنَّ الزَّهادةَ في الدُّنيا: أَن تكونَ بمَا في يدِ اللهِ أوثقَ مِنكَ بمَا في يدِكَ، وأَن يكونَ حالُكَ في المصيبَةِ وحالُكَ إذَا لَم تُصَبْ بِهَا سواءً، وأَن يكونَ مادِحُكَ وذَامُّكَ في الحقِّ سواءً».

ففسَّرَ الزُّهْدَ في الدُّنيا بثلاثةِ أشياءَ؛ كلُّها مِن أعمالِ القلوبِ، لَا مِن أعمالِ الجوارحِ:

أَحدها: أَن يكونَ العبدُ بمَا في يدِ اللهِ أوثقَ مِنهُ بمَا في يدِ نفسِهِ؛ وهذَا ينشأُ مِن صِحَّةِ اليقينِ وقوَّتِهِ؛ فإنَّ اللهَ ضَمِنَ أرزاقَ عبادِهِ، وتكفَّلَ بِهَا؛ كمَا قالَ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦].

فمَن حقَّقَ اليقينَ؛ وثقَ باللهِ في أمورِهِ كلِّها، ورَضِيَ بتدبيرِهِ لَهُ، وانقطعَ عَن التَّعلُّقِ بالمخلوقينَ رجاءً وخوفًا، ومنعَهُ ذلكَ مِن طلبِ الدُّنيا بالأسبابِ المكروهةِ. ومَن كانَ

كذلـكَ؛ كانَ زاهدًا في الدُّنيا حقيقـةً، وكانَ مِن أغنَى النَّاسِ وإنْ لَم يكن لهُ شيْءٌ مِن الدُّنيا!

والثَّانـي: أَن يكونَ العبدُ إذَا أُصِيـبَ بمصيبَةٍ في دُنياهُ، مِن ذهـابِ مالٍ، أَو ولدٍ، أو غيرِ ذلكَ، أرغبَ في ثوابِ ذلَك ممَّا ذهـبَ مِنهُ مِـن الدُّنيا أَن يبقَى لهُ؛ وهذَا أيضًا ينشـأُ مِن كمالِ اليَقينِ.

وقدْ رُوِيَ عن ابنِ عُمَرَ: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يقولُ في دُعَائِهَ: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لنَا مِن خشيتِك مَا تَحُولُ بِهِ بينَنَا وبينَ معاصيـكَ، ومِن طاعتِكَ مَا تبلِّغُنَا بـهِ جنَّتَكَ، ومِن اليقينِ مَا تهوِّنُ بِهِ علينَا مصائِبَ الدُّنيا»[1].

وهُـوَ مِن علاماتِ الزُّهدِ في الدُّنيا، وقلَّةِ الرَّغبَةِ فِيها؛ قالَ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَن زَهِدَ في الدُّنيا؛ هانَتْ عليهِ المُصيباتُ».

(١) أخرجَهُ التِّرمذيُّ (٣٥٠٢)، وقالَ: «هذَا حديثٌ حَسَنٌ غريبٌ»، وحسَّنَه الشَّيخُ الألبانيُّ في «صحيح الجامعِ» (١٢٦٨).

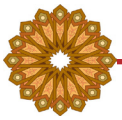

الثَّالث: أَن يستويَ عِندَ العبدِ حامُده وذامُّه في الحقِّ. وهذَا مِن علاماتِ الزُّهدِ في الدُّنيـا، واحتقارِهَا، وقلَّةِ الرَّغبةِ فِيها؛ فـإنَّ مَن عَظُمَتِ الدُّنيا عِنـدَه؛ أحبَّ المدحَ وكَرِهَ الذَّمَّ، ومَن اسـتوَى عِندَه حامدُه وذامُّه في الحقِّ؛ دلَّ علَى سُـقُوطِ منزلةِ المخلوقينَ مِن قلبِهِ، وامتلائِهِ مِن محبَّةِ الحقِّ، ومَا فيهِ رَضَى مولَاهُ.

وقدْ رُوِيَ عَن السَّـلَفِ عباراتٌ أُخَرُ في تفسـيرِ الزُّهْدِ في الدُّنيا؛ كُلُّها ترجعُ إلَى مَا تقدَّمَ.

ولْنَرجعْ إلَى شَرْحِ حديثِ: «ازهَدْ في الدُّنيا؛ يحبَّكَ اللهُ»:

فهذَا الحديثُ يدلُّ علَى أنَّ اللهَ يحبُّ الزَّاهدينَ في الدُّنيا. قالَ بعضُ السَّلَفِ: «قالَ الحَواريُّونَ لعيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: عَلِّمْنا عمـلًا واحـدًا يحبُّنَـا اللهُ عَزَّوَجَلَّ عليه؛ قـالَ: أبغِضُـوا الدُّنيا؛ يحبَّكُم اللهُ جَلَّجَلَالُهُ».

وقدْ ذَمَّ اللهُ تعالَى مَن يحبُّ الدُّنيا، ويؤثِرُهَا علَى الآخرَةِ؛ كمَا قالَ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ [القيامة: ٢٠-٢١]، وقالَ: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ٢٠]، وقالَ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات: ٨]، والمرادُ: حبُّ المالِ؛ فإذَا ذَمَّ مَن أحبَّ الدُّنيا؛ دلَّ علَى مدحِ مَن لا يحبُّها بل يرفضُهَا ويترُكُها.

قالَ الحسنُ: «مَن أحبَّ الدُّنيا وسَرَّتْهُ؛ خرجَ حُبُّ الآخرَةِ مِن قلبِهِ».

وقالَ عونُ بنُ عَبْدِ اللهِ: «الدُّنيا والآخرَةُ في القلبِ ككِفَّتَيِ الميزانِ؛ بقدرِ مَا تَرْجَحُ إِحدَاهما؛ تخِفُّ الأُخرَى»!

وقالَ وهبٌ: «إنَّما الدُّنيا والآخرةُ كرَجُلٍ لهُ امرأتانِ: إنْ أَرضَى إحدَاهُما؛ أسخَطَ الأُخرَى»!

واعلمْ؛ أنَّ الذَّمَّ الواردَ في الكتابِ والسُّنَّةِ للدُّنيا؛ ليسَ هُوَ رَاجِعًا إلَى زمانِها؛ الَّذِي هُوَ اللَّيلُ والنَّهارُ المتعاقبانِ إلَى يومِ

القيامَةِ؛ فإنَّ اللهَ جعلَهُما خِلْفةً لمَن أَرادَ أَن يذَّكَّرَ أَو أرادَ شُكُورًا.

وليسَ الـذَّمُّ راجعًا إلَى مكانِ الدُّنيـا؛ الَّذِي هُوَ الأرضُ؛ الَّتِي جعلَهَا اللهُ لبنِي آدمَ مِهادًا وسَـكَنًا، ولَا إلَى مَا أودعَهُ اللهُ فِيهَا مِن الجبالِ والبحارِ والأنهارِ والمعادنِ، ولَا إلَى مَا أَنبتَهُ فِيهَا مِن الشَّـجَرِ والزَّرْعِ، ولَا إلَى مَا بثَّ فِيهَا مِن الحيواناتِ وغيرِ ذلكَ؛ فإنَ ذلكَ كلَّه مِن نِعَمِ اللهِ على عبادِهِ؛ بمَا لَهم فيهِ مِن المنافِعِ، ولَهم بهِ مِن الاعتبارِ والاستدلالِ علَى وحدانيَّةِ صانِعِهِ، وقُدرَتِهِ، وعظمتِهِ.

وإنَّمـا الذَّمُّ راجـعٌ إلَى أفعالِ بنِـي آدمَ؛ الواقعةِ فِي الدُّنيا؛ لأنَّ غالبَها واقعٌ علَى غيرِ الوَجْهِ الَّذِي تُحمَدُ عاقبتُه؛ بلْ يقعُ علَـى مَا تضرُّ عاقبتُهُ، أَو لا تنفَعُ؛ كمَا قالَ جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا

﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

وبكلِّ حالٍ؛ فالزُّهدُ في الدُّنيا شعارُ أنبياءِ اللهِ، وأوليائِهِ، وأحبَّائِهِ.

الوصيَّةُ الثَّانيةُ: الزُّهدُ فيمَا في أَيْدِي النَّاسِ؛ وأنَّه مُوجِبٌ لمحبَّةِ النَّاسِ:

قالَ الحَسَنُ: «لَا تزالُ كريمًا علَى النَّاس أَو: لَا يزالُ النَّاسُ يكرمونَكَ، مَا لَم تَعاطَ ما في أَيدِيهِم؛ فإذَا فعلتَ ذلكَ؛ استخفُّوا بكَ، وكرهُوا حديثَكَ، وأبغضوكَ»!

وقَد تكاثرتِ الأحاديثُ عَن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأمرِ بالاستعفافِ عَن مسألةِ النَّاسِ، والاستغناءِ عَنهُم؛ فمَن سألَ النَّاسَ مَا بأيديهِم؛ كرهوهُ وأبغضوهُ؛ لأنَّ المالَ محبوبٌ لنُفُوسِ بنِي آدمَ، فمَن طلبَ مِنهُم مَا يحبُّونَهُ؛ كرهوهُ لذلكَ. وأمَّا مَن زَهِدَ فِيما في أَيْدِي النَّاسِ، وعفَّ عَنهُم؛ فإنَّهم يحبُّونه، ويُكرمونَهُ لذلكَ، ويسودُ به عليهِم؛ كمَا قالَ أعرابيٌّ

لأهلِ البَصْرَةِ: مَن سـيِّدُ أهـلِ هذِهِ القريةِ؟ قالُوا: الحسـنُ؛ قالَ: بِمَ سـادَهُم؟ قالُوا: «احتاجَ النَّاسُ إلَى عِلْمِهِ، واستغنَى هُوَ عَن دُنياهُم»!

ومَا أحسنَ قولَ بَعْضِ السَّلَفِ -في وَصْفِ الدُّنيا وأَهْلِها-:

ومَـا هِـيَ إلَّا جيفـةٌ مسـتحيلةٌ
عليهَـا كلابٌ هَمُّهُـنَّ اجتذابُهـا
فإنْ تجتَنِبْها كُنْتَ سِـلْمًا لأَهْلِهَا
وإنْ تجتذِبْهـا نازعتْـكَ كلابُهـا

❋❋❋